تقديم كتاب د. محمد مروة

تقلِّبُ ناظريك ذات اليمين وذات الشمال، رائيًا إلى الأمّة واقفةً على شفا جُرْفٍ هارٍ، جُبْنًا وذُلًّا وعمالة... وإلى العالم سائرًا على خطّين متوازيَيْن: خطُّ الحقِّ وهو بيِّن إلّا لمن عَميتْ بصيرَتُه، وخطُّ الباطلِ وهو بيِّنٌ إلّا لمن أغراه الدرهمُ والدنيار.

لم يَعُدْ أمامَ الإنسانِ في هذا العالَم بخطَّيهِ المتوازيَيْن إلّا أنْ يحملَ سلاحَه ويمشيَ، فالوقتُ ليسَ وقتَ الترقّب والانتظارِ المتخاذل...

وها محمّد مروّة امتشق الكلماتِ سلاحًا مقاومًا، حَبَكَ الكلماتِ روايةً تحكي قصَّةَ انتصارِ المقاومةِ على الغولِ الإسرائيليِّ الذي ارتسمَ في أذهان العرب وأخيلتهم وحشًا أسطوريًّا مستحيلةٌ مقاومتُه، وتحكي قصَّةَ انتصارِ دماءِ الشهداء على آلاتِ الدمار، وقصَّة مقاومةِ العينِ اليَقِظةِ للمخرزِ المُتعدِّدِ الرؤوس، وقِصَّةَ انتصار الشرقِ الجديد الذي بشّر به خليل حاوي [شرقِ العابرينَ الجسرَ في الصبح خفافًا]، على الشرق الجديدِ الذي عَمِلَ من أجله الشيطانُ الأكبرُ، وبشَّرت به الغولَةُ القادمةُ من بلادِ المغامرين المتصهينين، الذين أبادوا الهنود الحمرَ، ويعملون على إبادةِ من لا يدينُ بدينِ دولارهم.

فلنُسمِّ هذا الكتابَ روايةً تاريخيَّة، ونحن لسنا في معرِضِ دراسته دراسةً أكاديميّة، روايةً تؤرّخ لآخر الحروب الإسرائيليّة على لبنان، كأنّي بكاتبها أراد أن يُهديَها إلى أحفاده وأترابهم، طالما أنّ أولاده وأترابهم كانوا شاهدين على ما جرى فيها، هؤلاء الأحفادُ أو أحفادُهم الذين سيقرأون في مكانٍ ما أنّ يهودَ الشتات قد غادروا أرضَ فلسطين التي كانوا قد سمّوها في أحد الأيّام أرضَ الميعاد، وسيسألون كيف كان ذلك؟ وبما أنّ الشبّان لا يُحبّون دروسَ التاريخِ الجافّة، ستُشوّقهم قراءةَ التاريخ قصَّة أو فيلمًا سينيمائيًّا مشوَّقا...

وأنا بدوري سأُهدي نُسختي إلى حفيدتي لتتعرّف من خلالها الأحداثَ والأسماءَ التي لا يجب أنْ تغيبَ عن الذاكرة، وتتعلَّمَ منها لغةً عربيَّة جميلةً تُضاهي شعريُّة نثرها شعريَّة شعرِها... وتتمازج فيها الأخبارُ والخَطابةُ بالمُتخيَّل، تتحدّث بكلام سهلٍ ممتنعٍ عن الحدثِ العظيم في تاريخ هذا الشرقِ المريضِ، وهذه السهولة أو البساطةُ هي سرُّ الرَّوعةِ الكامنةِ فيها.

يقول محمّد مروّة في الرواية: لا يبقى من الإنسانِ إلّا فنُّه العظيم.. وقيمُهُ العظيمة، نعمْ يا صديقي، إنْ لمْ تنلْ ما تستحقُّ في هذه الدنيا، فلأنّك كنت صادقًا، وأنت القائلُ إنّ الإنسانَ كائنٌ محدودُ الأجلِ، يقطعُ رحلةَ الحياةِ كالظلِّ الذي ينطوي ويزولُ سريعًا...

محمّد مروّة المعلِّمُ الشاعر الأديب بدأ روايته بالكلام على مليتا رمزِ الانتصارِ العظيم أو كتاب الزمنِ الأسطوريِّ وأسرارِه، وبعبارةِ هل هدأ الطوفانُ يا مولاي؟ لا يا صديقي أقول لك لنْ يهدأ الطوفان قبل أن تجفَّ آبارُ النفطِ، التي أتاحت لبدوِ الصحراءِ أن يشتروا رؤساءَ دولٍ ووسائلَ إعلامِ العالمِ الذي كان يُسمّى عالَمًا متحضِّرا، والمثقَّفين والساسةَ المرتزقةَ في هذا اللبنانِ المنصرفِ - وكان في قديم الزمان ممنوعًا من الصرف - والشرقِ برمّته.

في الرواية لاعبون كُثر، بعضُهم سُمّوا بأسمائهم الحقيقيّة، وآخرون اختار لهم الكاتبُ أسماءَ ذاتَ دلالةٍ معيّنة:

المجاهدُ اسمُه **ساجد** مع ما تعنيه الكلمةُ وهي رمزُ الخضوعِ لله تعالى، أمّا الشيخُ فاسمه غالب، والغالِبُ اللهُ عزّ وجلّ.

ساجد: رمزُ المقاوم: إنسان متوقِّد الذهن، نذرَ نفسَهُ لمحاربةِ العدوِّ الصهيونيّ، ذلك المقاوم من سلالة النسور التي لا تسكن إلّا القمم، كتبَ بدمهِ تاريخًا جديدًا لأرضٍ تولدُ في الصباح، تولدُ مع الأغنيات.... وأعطى للشهادة معنًى: يقولُ كان ساجد صاحبَ موهبةٍ في الأخلاقِ وفي القتال... إنُّه يشبهُ الزُّهاد وليس بزاهد، كان فرِحًا بما يقوم به ومقتنعًا بما يفعل...

إنّه انتظرَ طويلًا هذا اليوم وعليه أن يكونَ اليومَ فنَّانا في صناعةِ التاريخ، وفي كتابةِ المجد... وفي النهاية سيدفعُ الثمن الذي لا بدَّ أن يدفعَه العُظماءُ والشرفاء.... بدمائِهِ ودماءِ إخوانهِ تحرِّرت الأرضُ التي لم تكنْ أرضًا قبل تموز من العام 2006... روى الأرضَ دماءً كما رواها الفلَّاحون ماءً...

أما الشيخ غالب فهو يقول ويفعل، وليس من الكَثرةِ الذين يقولون ما لا يفعلون، ينطبق عليه قولُ سيِّد البلغاء عليه السلام:« من نصَّبَ نفسَهُ للناسِ إمامًا، فليبدأ بتعليمِ نفسه قبل تعليم غيرِهِ، وليكن تعليمُهُ بسيرته قبل تعليمهِ بلسانه... شيخٌ مثقّف تتجاوزُ ثقافتُهُ حدودَ الحلالِ والحرام بمفهومهما التقليديّ إلى فهمِ ما يجري في الدنيا، إلى فهمِ مخطّطات الحركة الصيهيونيّة منذ الأساس، ليس واحدًا من الذين ينظرون ضدَّ الحركة الصهيونيّة، ولكنّهم سرًّا وعلانيَّة لا يؤيّدون من يُقاوِمُها، يحقدونَ على المقاومةِ لأسبابٍ معلومةٍ أو غير معلومةٍ.

هو شيخٌ يؤدّي دورًا سياسيًّا وجهاديًّا: وهو الذي يروي ما جاء في أسفارِ اليهود وتوراتهم المزوّرة، يرى أنّ الإنسانَ عاملٌ أخلاقيٌّ وليس وحشًا، قال إنّ إسرائيل هي أصل الشرور وشاركَ في محاربتها: هذا الشيخ يرمز إلى مُفجِّر الثورة الإسلاميّة، وإلى الإمام المغيَّب وإلى سيِّدِ المقاومة، وإلى كلِّ شيخٍ قرنَ القولَ بالفعل، ولم يقفْ على الحياد... يُقارن الكاتب بينه وبين نُظرائهِ

المُتصهينين كما يُسمّيهم، وهو الأنموذجُ الذي يسألُه رأيَه في كلّ الشؤون، يُشارك في القتال، وبعد انتهاء الحرب يُشارك في إعادة الإعمار...

هذا الشيخ سيُّارتهُ قديمةٌ متهالكة، رائحةُ الترابِ تهُفّ من ثوبه الطاهر، فيها من التينِ والزيتون والزوفا الشيءُ الكثير. في الرواية تركيزٌ على الدور الإيجابيِّ للمرأةِ:

أمّا أُمّيَّة تحملُ حكمةً فطريَّة تعلّمتْها من مشقّات الحياة، وزوجةً محبَّة، صابرةً مضحَّية... وحبيبةً لا تزال مستوطنةً الخيالَ على الرغمِ من تقادمِ السنين...

أمّا فاطمةُ زوجةُ المجاهدِ ساجد فلها شأنٌ آخر، لم تزِدْها الأيُّام والحربُ إلّا قوَّة وصلابةً.... تعوّدتْ على الأيّام الحلوة والمرّة، على الصدمات والتفاؤل، تعرف أنّ مسؤوليّاتها كبيرة، وأنّ عليها أن تُفكّر كيف تنجو بأطفالها وتحملهم إلى مناطِقَ آمنةٍ، وتحميهم من النيران الحاقدة (فهم ذخيرةُ الحبيبِ الذي لا تعرفُ إن كان سيعود...)، وحينَ تدعو اللهَ، لا تدعو لساجد وحدَه، وإنّما تقول: يا ربّ... اِحمِ من تبقّى... واحفظِ السواعدَ والبنادق...

فاطمةُ المنتظرةُ – ككلِّ الفواطمِ – زوجَها المقاومَ المرابطَ في مكان ما على الجبهة؛ وهي في مكانٍ ما من أرضِ الجنوبِ، لم تزل تحتضِن أطفالَها وتبكي أغلى فقيدٍ وأغلى شهيدٍ، وتتذكُّر الأحاديثَ والكلماتِ... كلّ الكلماتِ، تنتظره عائدًا مع الفراشات، مع الفجر، من حيث ينتظرُه وعدُ الله، وواجبُه المقدّس... ودمُهُ سيكون فخرًا على صدور أطفاله...

تقولُ لأطفالها: اسمعوا يا أبنائي: لقد قالَ والدُكم: لنْ نعيشَ على هامشِ الحياة، ولن نموتَ على هامشِ الحياة: لم يدركِ الأطفالُ معنى هذه الكلمات، لكنّهم أدركوا أنّ الأيَّام كفيلةٌ بحلِّ المعاني، وإفهامهم القصدَ الذي تحملُه تلك الكلمات...

هذا الكتاب معبِّر عن ميزة من ميزات صاحبه، وهي الصدق والطيبة...

هو في هذا المجتمع المادّيِّ المتكالب على حطامِ الدنيا، غريبٌ كغربةِ المقاومة بين العرب...

من يكتب لا يفكّر بالمناصبِ، وبالربحِ الآنيّ. الساعون وراء المناصبِ ووراء الحطام لا يكتبون، أو لديهم من يكتبُ عنهم، أو يُصحّح لهم ما يكتبونه...

المقاومةُ قبل التحرير في العام 2000 وقبل حرب تمّوز العام 2006 كانت مُحاربَةً حتّى من أهلها؛ الأعداءُ وأصحابُ المشاريع المعادية لم يخفوا حقدهم، ولم يخفوا مشروعَهم، كانوا يتحدّثون علانيَّة... لكن هل كان أهلُ المقاومةِ جميعًا راضين عنها؟ هل كلّ هؤلاء الناس الذين لولا المقاومةُ

لما حَلَموا بالعودةِ إلى قراهم وإلى أرضهم، كانوا كلُّهم قلبًا وقالبًا مع المقاومة؟ كانوا معها إن هي نَجَحت، وليسوا معها لو لم تستطعْ إكمالَ التحرير...

هذا الأمر ليس مستغربًا ولا غريبًا: الناسُ عبيدُ الدنيا... ما هو عددُ المسلمين الذين لم يَغُرَّهمْ بالله الغَرور بعد وفاةِ نبيِّهم؟ ماذا فعلَ أنصارُ عليٍّ بعليِّهم، وماذا فعل المسلمون بالحسين؟

التاريخ لا يُعيد نَنفسَه ولكنّ البشرَ همْ أنفسهُم وإن تغيّرت سُحنهم وأزياؤهم وأسنَّتُهم...